مباحث في علم التأويل

دكتور/ عمر إبراهيم الهاشمي إبراهيم
مدرس بكلية أصول الدين
جامعة أم درمان الإسلامية

المقدمة :

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، أن جعلنا مسلمين، في زمرة خاتم المرسلين محمد بن عبدالله عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم وبعد:

فإن أفضل ما تتعلق به الهمم بحثاً ودرساً، لهي علوم القرآن الكريم، والمعجزة الخالدة الدالة على صدق وعظمة نبينا الكريم، وساري مفعول دعوته في أمته إلى يوم يقوم الأشهاد، وقد شهدنا بالحق بما عليه أنزل من ربه قرآناً يتلى آناء الليل وأطراف النهار، ذلك بأن نتدبره كما أمر الله في عظيم مقصوده وصدق منطوقه، والذي لا ريب فيه تدبير أمور دنيانا ومعاد آخراتنا، وهو بحق لا تنقضي عجائبه ولا تضيق مشاربه ولا يخلقُ من كثرة الرد، ولعلي قد تقصدتُ شأن علم التأويل بحثاً، لما قد وجدت فيه من المواجد وعظيم المقاصد، بما هو سابق، ولما هو لاحق، ولم يزل فيضه مترع بكنه مأثور العلوم عن المعصوم (ﷺ)،وبابه مشرع إلى آفاق العلوم الكونية كسباً واجتهاداً والراسخون في العلم هم أحق من يخوض فيه مجالاً، ذلك بحق ما اصطفاهم الله قولاً وذكراً ولباباً، فهم أهل استنباطه حكَماً وأحَكاماً، واستلهام حادثات آجاله زماناً ومكاناً، ذلك منهم إيماناً واحتساباً(وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٧) (آل عمران).

خطة البحث:

لقد وفقني الله لكتابة هذا البحث الذي بين يدي القارئ، باعتماد تقسيمه إلى فصلين يحتوي كل منهما على بعض مباحث وجملة مطالب، نورد ذكرها كما يلي:

١/ **المبحث الأول:** التأويل مفهومه ومدلوله وموضوعه، وفيه مبحثان:

أ/ **المطلب الأول:** التأويل في اللغة والاصطلاح، وفيه أربعة مطالب:

أولا : : التأويل في اللغة.

ثانيًا: التأويل في الاصطلاح.

ثالثًا: التأويل في عرف المتأخرين.

رابعًا: بعض المعاني الدلالية للتأويل في سياق التفسير.

ب/ **المطلب الثاني:** وجوه مطالب تأويل القرآن الكريم، وفيه مطلبان:

أولا: وجوه مقاصد التنزيل الكلية.

ثانيًا: مقاصد الاختصاص المُطلقْ والمُقيد.

٢/ **المبحث الثاني:** التأويل بين أصول المنهج وفضول النهج، وفيه مطلبان:

أ/ **المطلب الأول:** أوجه النسبة والفرق بين التأويل والتفسير، وفيه ثلاثة مطالب:

أولا: وجه النسبة إلى القرآن والسنة.

ثانيا: وجه النسبة إلى العلوم الشرعية.

ثالثا: وجه الفرق بين مدلول العبارة ومفهوم الإشارة.

ب/ **المطلب الثاني:** الاتجاهات التأويلية عن دافع الفكر والمذهب والمعتقد وفيه مطلبان:

أولا: اتجاهات فكرية ظنية تتجاوز مدلول السياق اللغوي.

ثانيًا: اتجاهات مذهبية عقدية تستوحي الكشف وتستلهم الباطن.

وأنهيت البحث بخاتمة وفهرست للمصادر والمراجع .

المبحث الأول

التأويل في اللغة والاصطلاح

أولا :التأويل في اللغة:

" مأخوذ من الأوْل، وهو الرجوع إلى الأصل، يقال :آل إليه أولاً ومآلاً: أي رجع، ويقال: أوّل الكلام تأوْيلا وتأوّله : دبّره وقدّره وفسّره، ...." ولا عجب كما سنرى من أن التأويل في معنَيْيه اللغوي والاصطلاحي يتداخل ويتقارب إلى عموم مفهوم التفسير ومتعلقه السياقي والمقاصدي، وذلك بما وقف عليه بعض أهل التفسير كالطبري وغيره من مفسري السلف كما أورد السيوطي [١]، باعتبار أن التأويل بمعنى الأول وهو الرجوع (وإنما هو باعتبار أحد معانيه اللغوية فكأن المُؤوِّل أرجع الكلام إلى ما يحمله من المعاني)[٢]، ومآل التأويل إلى الأصل أي الرجوع إليه، باعتبار أن الأصل (ما يثبت حكمه بنفسه، ويُبني عليه غيره)[٣].

ثانيا : التأويل في الاصطلاح:

يذكر الشيخ مناع القطان في شأن المعنى الاصطلاحي للتأويل بأن له معنيان[٤]:

١/ تأويل الكلام: بمعنى ما أوّله إليه المتكلم أو يَؤوّل إليه الكلام ويرجع، والكلام إنما يرجع ويعود إلى حقيقته التي هي عين المقصود، وهو نوعان: إنشاء وإخبار، ومن الإنشاء: الأمر: ويؤكد القطان دخول الأمر ضمن معنى الإنشاء ويشرح معنى تأويل الأمر بأنه:

أ- هو الفعل المأمور به، ومن ذلك ما روي عن عائشة رضي الله عنها قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في ركوعه وسجوده: " سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفر لي، يتأوّل القرآن"[٥]، تعني قوله تعالى (فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا)[٦].

ب- تأويل الأخبار[٧]: هو عين المُخْبر إذا وقع، كقوله تعالى: " (هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ

رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ أَوۡ نُرَدُّ فَنَعۡمَلَ غَيۡرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعۡمَلُۚ قَدۡ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ)[٨].

٢/ تأويل الكلام: أي تفسيره وبيان معناه، وهو ما يعنيه ابن جرير الطبري في تفسيره بقوله :" القول في تأويل قوله تعالى كذا وكذا، وفي قوله : " اختلف أهل التأويل في هذه الآية" فإن مراده التفسير، ذلك هو معنى التأويل عند السلف[٩]، وكما يرى بعض المفسرين أن التأويل يُنعى بـــ مقصود التفسير، يرى البعض كذلك أن من معانيه الاستنباط[١٠] وحجتهم، أنّ (التفسير ما يتعلق بالرواية، والتأويل ما يتعلق بالدراية)[١١].

ثالثا:التأويل في عرف المتأخرين:

" هو صرف الفظ عن المعنى الراجح إلى المعنى المرجوح لدليل يقترن به- وهذا الاصطلاح لا يتفق مع ما يراد بلفظ التأويل في القرآن عند السلف"[١٢]، وقد أورد الزركشي مدلول التفاوت اللغوي بين معنى التفسير و التأويل مع وجود التقارب المعنوي بينهما[١٣]، ويعتبر صاحب كتاب أصول التفسير أن في اصطلاح معنى التأويل: بصرف المعنى الراجح إلى المعنى المرجوح بأنه موضوع علم أصول الفقه والكلام عليه[١٤].

رابعا: بعض المعاني الدلالية للتأويل في سياق التفسير:

هناك عدة معان لكمة (تأويل) في سياقاتها القرآنية ومدلولاتها التفسيرية، منها: حقيقة العلم ومرده إلى الله مثل قوله تعالى (وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ)[١٥]، ومنها : حقيقة المُخبر عنه حين يأتي ويظهر، كقوله تعالى (هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِى تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ فَهَل

لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ)[١٦].

أي حقيقة ما أخبروا به من أمر المعاد، ومنه الجزاء وحسن العاقبة من قوله تعالى : (فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً)[١٧].

ويدخل في ذلك معنى: حسن القضاء وتمام العدل ... وبلوغ الحكمة في مرد الحكم للكتاب والسنة ...[١٨].

ومن ذلك الوفاء وأداء الحق للناس وذلك من قوله تعالى: (وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً)[١٩].

ومن معانيه: الإستنباط من قوله تعالى:(وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ....)[٢٠].

ومن معانيه **التحريف:** وذلك من قوله تعالى : (فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ....)[٢١]، قال ابن كثير أي تحريفه على ما يريدون[٢٢] ومن معانيه أيضاً حسن التنبؤ بما تؤول به مدركات الرؤى والأحلام المنامية في توقع الأحداث كما في قصة يوسف عليه السلام مع فتية السجن، (نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ)[٢٣].

وكرؤيا يوسف للإحدى عشر كوكباً، مال الملك إليه: (يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَـٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗا)[٢٤].

المطلب الثاني

وجوه مطالب تأويل القرآن الكريم[٢٥].

أولا :وجوه مقاصد التنزيل الكلية:

بما أن الله تعالى قد أنزل القرآن على نبيه محمد(ﷺ) كآخر الكتب السماوية وختماً لها، فلابد من مقاصد يتقصدها هذا الكتاب ويُعناها، حيث لم تكن شاردة ولا واردة إلا وحواها واقع التنزيل في شتى ضروب الإجمال والتفصيل، واحتواها بالبيان إلى واقع الناس كل صنوف وصروف التفسير والتأويل بما ظهر وأُبهم أو تشابه منه أو أُختلف عليه، وذلك من قوله سبحانه (بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ)[٢٦].

وقوله جلّ ذكره(وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ)[٢٧]، ولمعرفة وجوه مطالب تأويل القرآن، لابد من معرفة جملة من المبادئ الأصولية والمبدئية التي يقوم عليها في الأساس مفهوم ومدلول علما التفسير والتأويل، منها، أولية مقاصد التنزيل كوحي إلهي نزل به الروح الأمين على قلب محمد خاتم النبيين ثم أولويّة مقاصد التشريع المُوكل بأمره خاتم الأنبياء، (وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ)[٢٨].

ويتبين من ذلك أن التأويل في عموم مفهومه، لا يخرج عن نطاق التفسير ومدلوله بأي حال، مادام المرجع فيه لأوّليّة مقاصد التنزيل العزيز وكتابه، ثم لأولويّة مقاصد

التشريع المُبيِّن لفحوى ذلك الكتاب في واقع سنة نبيِّه صلوات الله وسلامه عليه الذي وقع عليه أمر التكليف بيانا للناس وبرهاناً.

ثانيا:مقاصد الاختصاص المطلق والمقيد:

أ/ما استأثر الله بعلمه:

وقد تبين بمنطوق القرآن، أن بعضاً مما في القرآن من إخبار وإبهام وتشابه، ما لا يعلم تأويله إلا الله كالآجال والغيبيات كعلم قيام الساعة، ومنتهى آجال الخلائق، والنفخ في الصور، ومُبهمات الحروف الهجائية في أوائل السور، وغير ذلك مما لا دخل فيه لأمر نبيٍّ مُرسل ولا ملك كريم، أو ما دون ذلك من عموم وخصوص البشر، و لا جانٍ أو شيطان أشِر، وذلك من قوله تعالى (هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ)[٢٩]، ولا خلاف بين الأصوليين من أهل التفسير بالمأثور والمنقول رواية عن النبي(ﷺ) أو إجماع أصحابه رضوان الله عليهم من وقف علم التأويل ظاهراً وباطناً- على ذات الله سبحانه وتعالى- من تلك الآية معنىً وقراءةً، وما وعاهُ الراسخون في العلم قولاً وذكراً ويقيناً كأصل من أصول الإيمان[٣٠].

ب/ ما اختصّ ببيانه النبي(ﷺ):

وذلك مما لا يُتوصل إلى إدراك مدلوله إلا ببيان الرسول(ﷺ)، كتأويل جميع ما فيه من وجوه أمره، واجبهِ وندبهِ وإرشادهِ وصنوف نهيه ووظائف حقوقه وحدوده ومبالغ فرائضه وما أشبه ذلك من أحكام آيهِ التي لم يُدرك علمها إلا ببيان الرسول(ﷺ) لأُمّتِه بنصٍّ منهُ عليه أو بدلالةٍ قد نصبها دالّة أُمّتِه على تأويله كالكيفيات العباديّة من فرائض وسُنن.

ج/ ما يُعلم منه بالضرورة لكل ذي علمٍ باللسان العربي:

إنّ من سياق القرآن الكريم، ما يعلم تأويله كل ذي علمٍ باللسان الذي نزل به القرآن الكريم، وذلك كإقامة إعرابه، ومعرفة المسميات بأسمائها اللازمة غير المشترك فيها، والموصوفات بصفاتها الخاصة دون سواها، فإنّ ذلك لا يجهله أحدُ منهم، وذلك كسامع منهم لو سمع تالياً(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ)[٣١]،لم يجهل أنّ معنى الإفساد هو ما ينبغي تركه مما هو مضرّة، وأن الصلاح هو ما ينبغي فعله مما فعله منفعة وإنْ جَهِل المعاني التي جعلها الله فساداً، والمعاني التي جعلها الله إصلاحاً(دون الواجب من أحكامها وصفاتها وهيأتها التي خص اللهَ سبحانه بعلمها نبيه(ﷺ)، فلا يدرك علمها إلا ببيانه(ﷺ) ويؤكد ذلك ما ذكر صاحب التفسير عن الإمام الطبري أنْ التفسير على أربعةِ أوْجُه:

١. وجه تعرفه العرب من كلامها.
٢. تفسير لا يعذر احد بجهالته .
٣. تفسير يعلمه العلماء.
٤. تفسير لا يعلمه إلا الله تعالى ذكره.

أما التفسير الذي لا يعذر أحد بجهالته فهو إحلال الحلال، وإحرام الحرام[٣٢].

المبحث الثانى

أوجه النسبة والفرق بين التأويل والتفسير

أولا:وجه النسبة إلى القرآن والسنة:

لا أرى في التفسير وعلوم القرآن ما يُعتبر وجه فرقة وخلاف أو تعارض بين كلٍ من التفسير والتأويل، ما كان السبيل إلى ذلك وفق مُسبق الأصول والضوابط الموجّهة إلى بلوغ مقاصد التنزيل في إظهار معانيه وإخراج حِكمه وأحكامه، فعلم التأويل من علم التفسير بنظري، هو كعلوم السنة من علوم القرآن الكريم، باعتبار أوجُه الصِّلة ونظير العلاقة القائمة لزاماً بينهما وذلك من وجوهٍ ثلاثة(٣٣):

١. أن تكون السنة موافقة للقرآن من كل وجه.
٢. أن تكون بياناً لما أريد بالقرآن وتفسيراً له.
٣. أن تكون موجبة لحُكمٍ سكت القرآن عن إيجابه.

- كذلك لابد للتأويل الأصوليّ- أن يسير في ركاب التفسير بمعانيه الكلية المقاصدية وأن يحوم في فناء رحابه وذلك:

١. بالموافقة له من كل وجه.
٢. أن يكون بياناً معضداً لما أُريد به التفسير للقرآن.
٣. أن يكون موجباً لِحِكمة بيان أو حُكم تبيان لمراد التفسير، في ظاهر اللفظ أو مفهوم الإشارة فيما لم يُجليه المنطوق، وهذا ما اعتمده علماء الأصول من المفسِّرين كما أسلفتُ ذكره، ومنهم الإمام الطبري الذي اصطلح اسم التأويل على مُسمّى كتابهِ- جامع البيان-، وقياساً على ذلك فإن خروج التأويل عن مقتضى التفسير وأصوله، إنّما يُعدُّ من قبيل التأويل المذموم الذي مبعثه- إعمال الرأي والفكر والمذهب وسوء المعتقد، ما يُتوهّم به مفهوم المخالفةِ والتعارضِ بين التفسير والتأويل.

ثانياً:وجه النسبة إلى العلوم الشرعية:

يرى أكثر أهل العلم من السلف والخلف، من لزوم ثوابت أصولية يقوم عليها علم – التأويل – يؤول إليها وينطلق عنها، مُجرّداً عن سلطان الهوى والفكر والمذهب، إرتجاءً

لمقاصد التنزيل وأحكام التشريع التي لا تخرج عن محراب القرآن والسنة،- كالإجماع والقياس والاستنباط، المُناط بأمره العلماء، ولعلّ أهم مُستند إلى ذلك، هو علم اللغة العربية التي هي لغة القرآن ومناط التشريع ابتداءً وانتهاءً، وإليك نسوق بعض الثوابت الأصولية المرجعية لعلم التأويل وهي:

١. علم اللغة العربية التي هي لغة القرآن وبها أُنزل، وذلك بمعرفة مفردات الألفاظ ومدلولاتها في لغة العرب- أي المنطوق-.
٢. استعمال الألفاظ والمفردات بحسب السياق القرآني،- أي المدلول-.
٣. معرفة الأساليب العربية- أي ما يُفهم منها محتملات الألفاظ أو أحدها بدليل راجحٍ يدلُّ على ذلك، وهو- المفهوم-.
٤. استنباط المعاني من كل ذلك مجتمعاً، وذاك هو التأويل القائم على أصوله بما (لا يخالف شرعاً في عمومه، ولا يوافق اتباع هوى بإعمال رأي أو غلبة فكرٍ ومذهبٍ يُساق في خصوصه)[٣٤] ولا يخرج التأويل روايةً ودرايةً عن مقتضى هذه الأصول، مضافاً إلى ذلك ما يجب من تحقق شروط وآداب في شخص المؤوِّل بِمثل ما هي للمُفسِّر، أهمها: حسن الإعتقاد ايماناً صادقاً مع صدق المقصد ودقّة الفهم الذي(يؤْتاهُ الرجل بخلوص النية وصفاء القلب والفراسة التي منبعها الإيمان...)[٣٥].

ثالثاً:وجه الفرق بين مدلول العبارة ومفهوم الإشارة:

يرى أكثر أهل العلم أن ما بين التفسير والتأويل من نسبةِ فرق، ففي نطاق مساقات اللغةِ ومتفرّع علومها الأسلوبية والبلاغية كما بين الحقيقة والمجاز، وما بين مراد العبارة ومفهوم الإشارة، فالتفسير هو (بيان وضع اللفظ إما حقيقةً أو مجازاً، كتفسير الصراط بالطريق، والتأويل، إخبار عن حقيقة المراد، والتفسير إخبار عن دليل المراد، لأنّ اللفظَ يكشفُ عن المراد، والكاشفُ دليل، مثاله قوله سبحانه :(إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ)[٣٦]، تفسير أنه من الرصد، يُقال رصدتهُ: رقبتهُ، وتأويله التحذير من التهاون بأمر الله سبحانه، والمشهور عند المتأخرين: أنَّ التفسير هو بيان المعاني التي تُستفاد من وضع العبارة، والتأويل هو بيان المعاني

التي تُستفاد بطريق الإشارة.. وقال بعض العلماء: التفسير ما يتعلق بالرواية، والتأويل ما يتعلق بالدراية..[٣٧]، ولعل أكثر ما تكون نسبة الفرق بائنة عند بعض مُفسرِّي المُتصوفة ومنهم الألوسي، بِعدِّهِ (علم الموهبة والفيض والفتوحات في الإطلاع على الأسرار هي إحدى ما يُشترط في المفسر، لما لَهُ من إرتباط بعلم التأويل، ومن ذلك قوله :(إنّ علم الموهبة بعد تسليم أنه كسبيّ، إنما يُحتاج إليه في الإطِّلاع على الأسرار، لا في أصل فهم معاني القرآن كما يفهمه كلام البرهان)[٣٨]، وكثير من المفسرين بصدد الثاني، والواقفون على الأسرار – وقليلٌ ما هُم – لا يستطيعون التعبير عن كثير مما أُفيض عليهم فضلاً عن تحريره وإقامة البرهان عليه علي أنّ ذلك تأويل لا تفسير ... فتدبر ..)[٣٩].

وهذا النهج التأويلي الخاص، برأي الباحث، هو ما يؤدي إلى مفهوم المخالفة والتعارض، بل والتناقض عمّا يقوم عليه علم التأويل من ثوابت أصول تعرضنا لذكرها، بل يقود كثيراً من المؤوِّلة إلى مآخذ الرأي المذموم ومُعتقد الفكر والمذهب بما سنتعرّض لِذكرِه في مبحث لاحق.

المطلب الثاني

الاتجاهات التأويلية عن دافعِ الفِكر والمذهب والمُعتقد

أولاً:اتجاهات فكرية ظنية تتجاوز مدلول السياق اللغوي:

لقد ذكرت في مباحث سابقة حجيّة التفسير الصحيح وفق قواعد أصولية ومضابط شرعية لا يخرج عن تلمّسها صحيح التفسير وما يرتبط به بالضرورة من تأويل أصولي يسترجع في منهجيته قواعد وأصول التفسير، موافقاً ومعضداً لحقيقة المدلول والمفهوم وفي سياقِ متّسق ومنسجم يتناسب ومقصود كلام الله تعالى بإدراك معانيه الظاهرة لفظاً والراجحة فهماً في نطاق المواءمة والملازمة والتعاضد بين عِلميْ التفسير والتأويل لغايةِ ما هو منطوق ومدلول ومفهوم كتاب الله العزيز وإخراج حِكمه وأحكامه، دونما تعارض أو تناقض.

ومثلما للتفسير من قواعد أصولية تعرضتُ لذكرها في بحث سابق كأحسن ما هي طرق التفسير الصحيح باتفاق علماء الأصول من المفسرين، كذلك ما توافقوا عليه من

إعمال الضوابط الحُكمية كمنطلق أصولي لعلم التأويل، إذ التأويل عندهم ملحوظ فيه (ترجيح أحد محتملات اللفظ بالدليل، والترجيح يعتمد على الاجتهاد، ويُتوصل إليه بمعرفة مفردات الألفاظ ومدلولها في لغة العرب، واستعمالها بحسب السياق ومعرفة الأساليب العربية واستنباط المعاني من كل ذلك....[٤٠]) وذلك في إطار المنهج التفسيري والتأويلي الذي يجب أن ينهجه كل من المفسر والمؤوِّل في إطار الشروط والآداب، وذلك (... بأن يلم بالشروط والخصال التي هي وسائل لفهم كتاب الله تعالى، وأدوات للكشف عن أسراره مبتعداً عن كل ما ذكرناه من الأمور التي تجعل المفسر في عداد المفسرين بالرأي المذموم، ثم يستنبط ما يمكن من الآية في حدود القوانين الشرعية، .. يقِظاً فطِناً، عليماً بقانون الترجيح حتى إذا ما كانت الآية محتملة لأكثر من وجه، أمكنه أن يرجِّح ويختار[٤١]' وعدا ذلك يكون في عداد القول بالرأي المذموم بما لا يستند إلى أصل راجح ولا مرجوح، كما ذكرنا من قول للألوسي من قبل.

ثانيًا:اتجاهات مذهبية عقدية تستوحي الكشف وتستلهم الباطن:

هناك من التأويلات المذهبية والعقدية ما لا يحدّها حدود القيد الشرعي الموجب لمقتضى التأويل القائم على أسس علمية وموضوعية في سياق المعنى الحُكمي والفهمي لمقصود التفسير الذي جوهر موضوعه– كتاب الله العزيز – ، وتلك التأويلات التي نحن بصدد ذكر نماذج منها، بعضها يقع في أسر مؤثرات المذهب والمعتقد الخاص بشأن صاحبه وفاعله، ويستجدى كلّ من أولئك المؤوِّلة، مرائي فكره ومذهبه ومعتقده في سياق منطوق القرآن الكريم، علّهُم يجدون مستنداً تتحقق عنده المطالب وتلوذ به المآرب، فمنهم من يحتج بمعاني الباطن أو العلم اللّدنّي فهماً عن الله، ثم من يتعلل بعلم الأذواق ومقامات الأحوال من فيض وجذب، أو رُؤى منامية تفيض بالبشريات كما هو عند صاحب تاج التفاسير من قوله :(ما اعتمدت على فهمي في تفسيري إلا لقوله صلى الله عليه وسلم في بعض الوقائع حين كنت أفسر ما معناه، اعتمد في تفسيرك هذا على ما تفهمه عن الله أكثر مما تنقله من كلام من قبلك)[٤٢]، وفي أثر عنه قوله (قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : اكتب فإنك لا تخطئ)[٤٣].

فنجد أكثر ما يكون ذلك عند بعض متصوفة الإسلام وأصحاب مذهب ختم الأولياء وحجّتهم المذهبية في ذلك- اختصاص الأولياء بعلم اللّدُن وعلم الباطن، وكذلك الشيعة الامامية في اعتقاد مذهب الإمام المعصوم، وكذلك المعتزلة في مذهب عصمة الأنبياء كما عند الزمخشري والرازي من قصة نبي الله يوسف مع امرأة العزيز أنه (همّ بضربها لا مواقعتها باعتبار مجازيّة المعاني لا حقيقة وقوعها) بما مثاله عدم إمكان رؤية الله عياناً يوم القيامة عند الزمخشري صاحب مذهب الإعتزال، وإنْ قد نصّ عليه قول الله تعالى (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ)[٤٤]، بقوله : أي منتظرة رحمة ربها وراجية لها...[٤٥].

أما علم الباطن بمذهب- فكرة ختم الأولياء- عند صاحب كتاب تاج التفاسير أثراً عن محي الدين بن عربي، يقول صاحبه: (وهو علم الباطن القائل فيه(ﷺ): علم الباطن سر من أسرار الله عز وجل وحكم من الله يقذفه في قلوب من يشاء من عباده)([٤٦]).

كما نجد لابن عربي تأويلات فلسفية وباطنية دافعه إليها مذهب وحدة الوجود في اصطلاحه فكرة- الإنسان الكامل- ومذهب ختم الأولياء[٤٧] والذي عنده يتحقق علم الباطن واللّدُن كفاحاً ومُشافهةً ومشاهدةً عن الله دون حجاب نبيّ أو إسناد حديث مُسند أو نقل أثر، وذلك فيما ذهب إليه من اتخاذ نهج – الحيرة – وهو إغماض العين عما هو ظاهر دليل، إلى ما وراء ذلك من معراجٍ صوفيّ- يأخذ عن جلال الحضرة الإلهيّة والنبويّة كفاحاً- .. وذلك ما يعتبره أصحاب ذاك النهج،- حقاً ولائياً خاصاً يخوضون به في المتشابه ويقولون به على سبيل القطع والجزم في المبهم الذي استأثر الله بعمله كالحروف الهجائية المقطعة في مفتتح بعض سور القرآن[٤٨].

يقول الدكتور محمد حسين الذهبي رداً على ما يقوله كل من أولئك وهؤلاء من أصحاب المذاهب والأفكار والمعتقدات كمستندٍ يتأوّلونه لتبرير مذاهبهم بما ليس إليه دليل، وفي بعض ما يحتجون به لدليل صحيح ظاهر (تمسكاً منهم بدليل صحيح وحمله على ما لا يراد به .....)[٤٩]، ويستنكر عليهم وقد نبذوا وراء ظهورهم علم الظاهر وما يقوم عليه من أسس وقواعد ويحتالون ويتحايلون بمعاني الباطن، ومتسائلاً (فهل

الظاهر ما يظهر من معنى النص القرآني بادئ الرأْي، والباطنُ ألغاز وأحاجيّ ومعميّات لا يفهمها إلا هُمْ ؟ .....)[٥٠].

وأنه أشد ما يكون ذاك الاستنكار على دعاة الباطن والفكر والمذهب عند الباحث المستشرق- أجنست قولد تسهير- وهو يرى بعض متصوفة الإسلام يلِجون خِضمّ التأويل المذهبي والمعتقدي، تحاملاً على ظاهر نصوص القرآن ومفهوم سياقه، ليجدوا في ذلك المستند والمخرج لمساق فكرهم ومذهبهم ومعتقدهم، ومستنكراً عليهم بقوله:(وفي الحق ليس عملاً هيناً على متصوفة الإسلام أن يجدوا أفكار التصوف مترائية في القرآن وأن يروا لأنفسهم حقاً في اتخاذ كتاب الإسلام المقدس شاهد صدق على مذاهبهم الدينية والفلسفية، ذلك انه سيكون من العسير تصور مذاهب من التفكير الديني، تقف موقفاً أشد تعارضاً بعضها مع بعض من موقف الإسلام الأصلي القائم على الرواية والنقل تجاه التصوف، هنالك يتجلى أسمى إدراك ممكن لتنزيه الالوهية عن ملابسات المادة، وهنا الاعتقاد بالفيض الإلهي المُنبثّ في كل شيء...)[٥١].

وأقولُ جاهراً في وجه هؤلاء من أصحاب الاهواء المنبعثة عن صدور تضيق بالحق، وأنفسٍ ترتعب من ذكره، أنّ عليهم وجوب التأدبّ مع الله إجلالاً، واحترام أهل العلم نقلاً وعقلاً، خضوعاً لهم واستحياءً، والكفُّ عن مكائد النفس ومصائد الشيطان جهلاً وتجهيلاً وابتداعاً.

الخاتمة

الحمد الله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين محمد بن عبدالله خاتم الأنبياء والمرسلين.

وبعد:

أرجو أن أكون قد بينتُ مرادي من البحث الذي بين يديْ القارئ، حقيقة ما عليه علم التأويل القائم على أصوله، والمتشعِّب بفروعه، وحال ما عليه أهل الأصول من العلماء، وما عليه أهل الفضول من ذوي الاهواء، وإني لأرجو للقائمين بأمر التأويل بحثاً وعلماً ودرساً، بأن يُعنوا بالتحقيق والتدقيق بما لا يلابسه الباطل، وأُوصي بأن يكون لعلم التأويل اختصاصاً واعتناءً من أئمة المسلمين وأعيان علمائهم، وان يفسحوا له في واقع مستجدات العصر وضروراته العلمية والمعرفية مجالاً ومآلاً يهتدي إليه كل طالب حق ويُدراُ به ويُدفع كلَّ باطل وصائل.

وآخر دعوانا أنِ الحمدُ لله رب العالمين،،،،،،،،،

إعداد

د. عمر إبراهيم الهاشمي إبراهيم

سوداني الجنسية / جامعة أم درمان الإسلامية / كلية أصول الدين

الحواشي:

[1] – انظر الاتقان في علوم القرآن للسيوطي، دار الفكر ، ط ١٤٢٣، ج ٣٢٥/٢.

[2] – انظر أصول التفسير لكتاب الله المنير، خالد عبدالرحمن العك، مكتبة الفارابي، دمشق، ط ٢٣/١٩٦٨ وانظر البحر المحيط لإبن حيان ج١، المقدمة/ ١٣-١٤.

[3] – انظر التعريفات للجرجاني، ط البابي الحلبي ٢٢/١٩٣٨.

[4] – انظر مباحث في علوم القرآن، سابق، ٣١٧-٣١٨.

[5] – انظر سابق، ٣١٨، عن صحيح البخاري ومسلم.

[6] – سورة النصر، الآية ٣.

[7] – انظر، مباحث في علوم القرآن، ٣١٨ سابق.

[8] – سورة الأعراف، الآية ٥٣.

[9] – انظر مباحث في علوم القرآن، سابق/٣١٨، وانظر البرهان لبدر الدين الزركشي، ط القاهرة، ١٩٥٧م، ج ١٤٦/٢.

[10] – انظر الاتقان، سابق/ ٣٢٥، وانظر أصول التفسير، سابق/٢٤.

[11] – انظر سابق، ٣٢٥-١٧٣، ج٢.

[12] – مباحث في علوم القرآن ، سابق، ٣١٨.

[13] – انظر مباحث في علوم القرآن، سابق/٣١٨، وانظر البرهان للزركشي، سابق ٢ج، ص ١٤٦، بتصرف.

[14] – انظر أصول التفسير، ٢٣، بتصرف.

[15] – سورة آل عمران، الآية ٧.

[16] – سورة الأعراف، الآية ٥٣.

[17] – سورة النساء، الآية ٥٩.

[18] – انظر ابن كثير، دار المنار، ١٤٢٣هـ، ج٥٠٢/١.

[19] – سورة الأسراء، الآية ٣٥.

[20] – سورة النساء، الآية ٨٣.

[21] – سورة آل عمران، الآية ٧.

[22] – انظر ابن كثير، سابق، ج٢٣١/١.

[23] – سورة يوسف، الآية ٣٦.

[24] – سورة يوسف، الآية ١٠٠.

[25] – راجع مقدمة تفسير الطبري بتصرف، ط١٩٥٤م، البابي الحلبي، ج٧٣/١ وانظر أصول التفسير، سابق/٢٥.

[26] – سورة النحل، الآية ٤٤.

[27] – سورة النحل، الآية ٦٤.

[28] – سورة النحل ، الآية ٨٩.

[29] – سورة آل عمران، الآية ٧.

[٣٠] –انظر أبن كثير، سابق، ٢٣٢–٢٣٣، الطبري، سابقج١، ٢٧٥.

[٣١] – سورة البقرة، الآية ١١.

[٣٢] – انظر أصول التفسير، سايق،٢٦–٢٧، عن مقدمة الطبري، ج١/٧٣، بتصرف.

[٣٣] – انظر أصول التفسير، سابع،٨٢.

[٣٤] – انظر محمد حسين الذهبي، الإتجاهات المنحرفة في التفسير، دوافعها، ط٢، ١٣٩٨ه، دار الاعتصام،٨٧.

[٣٥] – انظر أصول التفسير، سابق، ٤٥–٤٩، وانظر مباحث في علوم القرآن، سابق،٢.

[٣٦] – سورة الفجر، الآية ١٤.

[٣٧] – انظر أصول التفسير، سابق،٢٤.

[٣٨] – هو بدر الدين الزركشي، صاحب البرهان في علوم القرآن.

[٣٩] – انظر روح المعاني للألوسي، ج١، دار إحياء التراث العربي، بدون تاريخ،٦٠.

[٤٠] – انظر أصول التفسير، سابق،٢٤.

[٤١] – انظر سابق، ٥٤–٥٦.

[٤٢] – انظر تاج التفاسير للميرغني، سابق، ط مصر، ١٩٨٥م، ج١، ٥٧.

[٤٣] – انظر الإبانة النورية في شأن صاحب الطريقة الختمية، ابن إدريس الرباطابي، ط١، ١٩٩٠م، تحقيق د. محمد إبراهيم أبو سليم، دار الجيل بيروت،١٧٤.

[٤٤] – سورة القيامة ، الآيات ٢٢–٢٣.

[٤٥] – راجع الكشاف للزمخشري، ط ١٩٥٣م، ج ١٤، وانظر التفسير الكبير للفخر الرازي، ط ١٩٣٨،١م ، ج١٨، ١١٥–١١٨.

[٤٦] – انظر تاج التفاسير، سابق، ٢٦٧/١، لم أجد مستندا للحديث في الصحاح.

[٤٧] – انظر الفتوحات المكية لابن عربي، ط دار صادر، بدون تاريخ، ج ٢/٢٩٠، ج ١٨٦/١.

[٤٨] – انظر تاج التفاسير، ج١/ ١٤٦،٢٦٧.

[٤٩] – انظر الإتجاهات المنحرفة، سابق، ط٨٧،٢.

[٥٠] – انظر سابق، ٨١–٨٧.

[٥١] – مذاهب التفسير الإسلامي، أجنست قولد تسهيل ، ترجمة د. عبدالحليم النجار، دار إقرأ، ط٢، ١٤٠٣ه–١٩٩٣م، ٢٠١.

فهرست المصادر والمراجع:

١) مناع القطان، مباحث في علوم القرآن، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٤٢٣ه- ٢٠٠٢م.
٢) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، دار الفكر بيروت، ط ١٤٢٣ه، ج٢.
٣) أصول التفسير لكتاب الله المنير، خالد عبدالرحمن العك، مكتبة الفارابي، دمشق، ط ١٩٦٨م.
٤) البحر المحيط، لأبن حيان،١٩٥٦م، مصر.
٥) التعريفات للجرجاني، ط البابي الحلبي، ١٩٣٨م.
٦) صحيح البخاري، بشرح فتح الباري، ج٣، دار الفكر، بيروت.
٧) البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، ط القاهرة، ١٩٥٧م.
٨) التفسير الكبير، للفخر الرازي، ط ١، ١٩٣٨م.
٩) تفسير الطبري، جامع البيان، ط ١٩٥٤م، البابي الحلبي.
١٠) أنظر تفسير القرآن العظيم، لإبن كثير، ج١، دار المنار القاهرة، ط١، ١٤٢٣ه.
١١) الإتجاهات المنحرفة في التفسير، دوافعها ودفعها، محمد حسين الذهبي، دار الإعتصام ١٣٩٨ه.
١٢) روح المعاني للألوسي، ج١، دار إحياء التراث العربي، بدون تاريخ.
١٣) تاج التفاسير للميرغني، ط مصر ، ١٩٩٠م، ج١.
١٤) الإبانة النورية في شأن صاحب الطريقة الختمية، إبن إدريس الرباطابي، ط٢، الدار السودانية للكتب،
١٥) الكشاف للزمخشري، دار الفكر، ١٩٥٣م،ط٢، ج١٤.
١٦) مذاهب التفسير الإسلامي، أجنست قولد تسهير، ترجمة د. عبدالحليم النجار، دار اقرأ،ط٢، ١٩٩٣م.
١٧) الفتوحات المكية لأبن عربي، دار صادر، بيروت، دون تاريخ.
١٨) التفسير والمفسرون، محمد حسين الذهبي، ط١٩٦١م، دار الكتب الحديثة مصر.